زاوية

بين مزدك وماركس

عباس البغدادي

في البدء لا سلطة للمعرفة من السابقين على اللاحقين، بقدر ما هو تراكم معرفي، وكل له حفرياته المعرفية ومنجزه الفكري وفق معطيات زمانية ومكانية.
الدولة الساسانية أولدت من رحمها (مزدك) عام ٤٨٧م، في ظل مجتمع طبقي له درجات معلنة رسمياً من قبل الأباطرة، والحقيقة ملكهم منذ عهد (اردشير) حتى عهد (يزدجرد) انطلق (مزدك) ثائراً ضد امتلاك الحقيقة وانطلق الحكام الساسانيون ينظرون لفهمهم للحقيقة من طبيعتهم الخاصة وبعودتهم إلى ذواتهم وإرثهم (الكسروي) عرفوا كنه العالم وصيرورته. وصاغوا حكماً (اوتوقراطياً) دام مئات السنين.
وبالمقابل أدرك مزدك قوانين خارج ذات الفرد تملي أحكامها وتحتاج إلى الكشف والتطوير. عاصر مزدك (قباذ) وانصرف لدراسة فكرة زرادشت ومانو ودرس اليهودية والمسيحية. وتعمق بالسلم الطبقي المسلم به لدى المجتمع ظاهراً. وبروح (نيتشويه) أدرك أنه الفرد القادر أن يفجر تمرداً ضد الفهم الكسروي للمجتمع. ولكنه على العكس من نيتشه أدرك أن قوة أفكاره تكمن لا في ذاته بل في مجموع المجتمع. وراح يبشر بمبادئه وشنت عليه حملة وصف بها بأنه (محرض السفلة) (راجع سياسة نامه ص٦١). هاجم عبادة الاباطرة ودعا إلى اختراق السلم الطبقي ودعا للتحرر من الرق الجسدي والنفسي لمن يقف في أعلى السلم الطبقي. وأدار جدلاً حول إباحة الأموال وإباحة النساء. فاتهم في باب النساء بالأباحية لكنه رد على ذلك مشيراً إلى حرمان المحرومين من الزواج وتعدد الزوجات للآخرين فقصد أن يكون لكل إنسان زوجة وعدم حرمان أحد. ولكن رغم ذلك اتهم بالأباحية.
إن أفكار (مزدك) لم تكن (ديانة) بقدر ما هي مذهب اجتماعي وسياسي، اندمج مزدك مع المجتمع وانتشر شبكياً داخل الأنساق الاجتماعية ليخترق رأس السلطة (قباذ) ويقنعه بأفكاره.
وقف مزدك يعلن (النور يفعل بالقصد) و(الظلمة تفعل بالخبط والاتفاق)، النور حساس، الظلام أعمى، والخلاص يتم بالاتفاق، احتكار المال سبب مآسي المجتمع، أشيعوا المال، للأرض أركان هي الخير والشر، (راجع الملل والنحل، الشهرستاني، ص٢٤٩).
القتل حرام وإدخال الألم على الإنسان حرام.
رغم ذلك فقد هوجم مزدك بعكس ما ادعى به (راجع محمود شيت خطاب قاده فتح بلاد فارس ص٢٥).
أعلن مزدك مشروعه هذا مستلهماً الزرادشتية ثقافة له متخذاً المحرومين مادة ثورته والطبقات العليا هدفه.
وشاع بين الناس أن النور أعلى من الظلمة قاصداً علو الخير على الشر كان مزدك طوباوياً منظماً أعلن أن مادة الخير أربعة هي التمييز والفهم والحفظ والسرور.
والرجال أربعة هم، رجال الدين، الحرب، الحكمة والموسيقى.
والرجال من الصنف الأول والثاني للسلطة، ولكن الصنف الثالث والرابع مجدهما مزدك ولم تمجدهم السلطة ويصل مزدك ذروة عملية أفكاره بدعوته بأن الخلاص بيد البشر يحارب الشهوات والمباغضة والقتال ونسب كل أنواع القتال إلى عدم المساواة، وحدد ملكية الغذاء بقوت يوم والملبس لسنة واحدة. لقد نال مزدك من لعنات المؤرخين ما لم ينله غيره سواء ممن عاصروه أم ممن جاء بعده.
لقد وضع الأباطرة الساسانيون أنفسهم في خدمة أنفسهم، ووجدوا هدف ومعنى وجودهم في ذواتهم كطفاة. وأما فضائلهم فانبعثت من ذواتهم لأنهم لم يقيموا وزناً لأية فكرة وديانة وعاشوا كأسياد وضعوا أنفسهم فوق الفضيلة والعقائد والمعرفة. وكانت القوة هي الإرادة الحقيقية متجاوزين العقل كقوة ومرشد للسلوك الإنساني. ومراجعة تاريخ الإمبراطورية نجده مسلسلاً من الحروب العدوانية والدفاعية مع البيزنطيين إلى الشمال و(الهياطلة الهون) في الشرق عبر الصين وأفغانستان وتحرشاتهم في الغرب عند المدائن والعراق والجزيرة لقد كان سلوك الساسانيين هو مثال للإرادة الفردية بكل تجلياتها معتقدين أن إرادة الأقوياء هي التي ستنتصر في النهاية. ومن هذه المنطلقات كانت الحروب مشتعلة وقيم الفرد ذات الطابع البطولي الحربي هي درب الوصول إلى قلب الإمبراطور. فسادت قيم الاستيلاء ومصارعة الغرباء حرباً وقتل الضعفاء من أبناء جلدتهم وزجهم في تلك الحروب وقهرهم باستمرار. وإن النبل والرفعة الاجتماعية اقترنت بالقسوة والنجاح في الاستيلاء على الأرض والأموال والبشر.
وفق هذه التبريرات الفلسفية لعنصر القوة والتسلط ولدت الإمبراطورية الساسانية وولدت في رحمها الأفكار المزدكية.
لم يكن مزدك شيوعياً ولا ماركسياً كما يصفه كريستنسن في مؤلفه إيران في عهد الساسانيين ص٣٢١ والذي يعد من أعظم المصادر عن هذه المرحلة ومؤلفه أستاذ جامعي دانماركي مرموق.وراح الكتاب العرب المسلمون المحدثون يصفونه بنفس الوصف على عكس أسلافهم الذين وصفوه بأبشع الأوصاف.بين مزدك وماركس خمسة عشر قرناً. وهي مسافة زمنية هائلة. ومنجز البشرية في زمن ماركس يختلف تماماً عن مرحلة مزدك حيث المرحلة الإقطاعية المتداخلة مع العبودية في نمطها الآسيوي كما يصفها ماركس. تختلف عن العصر الرأسمالي الناهض في زمن ماركس في أوربا وألمانيا عام ١٨٤٨م. أضف إلى ذلك أن أدوات التحليل الجدلية والدرجة المعرفية والارثية فكرياً في مجتمع مزدك غير تلك التي عاش فيها ماركس ونخلص إلى أن وصف مزدك بالشيوعية أمر لا يعكس دقة وفهماً للفكر المزدكي.كان عام ٤٨٥م عام ازدهار للفكر المزدكي خاصة انضمام رأس الإمبراطورية (قباذ) كما قلنا وأخطأ مزدك حين اقتنع بمزدكية قباذ الذي كان (ميكافيليا) في قناعته لضرب الطبقات المتنفذة بمزدك وأنصاره ليتخلص منه بعد ذلك وهذا ما حدث حيث نظم قباذ أكبر مذبحة للمزدكية بعد تحقيق أهدافه كان ذلك في عام ٥٣١م. ونعود إلى ماركس الذي نص على أن تاريخ المجتمعات هو تاريخ صراع الطبقات وأدرك مزدك هذا المفهوم لأنه عاش في مجتمع طبقي مقسم رسمياً إلى عدة طبقات بتشريعات إمبراطورية.إن ماركس إنما قصد بموضوع الطبقة هو ليس الفوارق الظاهرية كما أدركها مزدك بل قصد التمايز البنيوي، وهو مجتمع صغير يحوي آلية داخلية تخضع لآلية خارجية تضمن لها توالدها وإعادة إنتاجها عبر الزمان والمكان (راجع مجلة النهج عدد ٣٦ ص١٨٩).لقد زلزلت أفكار مزدك أركان الإمبراطورية الساسانية ووصف كريستنسن المزدكية بأنها تيار ثوري (مصدر سابق) أن المزدكية أفكار مبكرة دعت إلى العدالة الاجتماعية وينظر إليها كونها تجربة ضمن مسلسل ضخم من التجارب والثورات والتمردات التي مرت وظلت محكومة بظرفها الزماني والمكاني. لقد فات على الطبري وابن الأثير وغيرهما من المؤرخين دراسة ظاهرة تاريخ الأديان سوسيولوجيا بدلاً من مهاجمتها وتجريدها من محتواها خاصة إن المزدكية سبقت الإسلام في الظهور.وفي هذا البحث المتواضع ندعو لترسيخ الوعي الموضوعي ليتمكن المتعلم من زيادة مؤهلاته الثقافية والحضارية لإثراء الفكر الإنساني في تفسير الموروث من زوايا حرة ذات نفع مستقبلي.ونشير هنا إلى أن الديانات اهتمت بالإنسان وحفظ حقوقه وتحريره من كل أشكال الاستلاب. وهي مجال حوار حضاري لفهم الماضي والحاضر والمستقبل وليست سيف صدام يعيق التقدم.

استفاقة العقل السوسيولوجي (١-٢)
من العقل الفلسفي إلى العقل السوسيولوجي

علاء جواد كاظم

(إن المكان الوحيد الذي قد نعثر فيه على الحقيقة ليس هو في الكل أو الوحدة الكاملة، بل في تلك الأجزاء المغفلة من تجربة الفرد التي نجت من وطأة هذا الكل)

إدورنو

(إن الاختلاف الرئيس بين العقلية البدائية والعقلية المتحضرة، هو في نسبة مجال ما هو طبيعي إلى ما هو فوق طبيعي عند كل منهما فكلما أتسع مجال الأول، ضاق مجال الثاني).

برغسون

إذا كان الإنسان العاقل هو المخلوق الوحيد الذي يمتلك القدرة تحديداً على أن يربط وجوده بأشياء غير معقولة - حسب ما يرى برغسون - نكون قد حددنا بالضبط ما نقصد بالعقل الفلسفي كما نكون قد تلمسنا بكل جرأة الجذور الحقيقية للأزمة التي مفادها عدم التزام هذا العقل بحدود المعرفة الإنسانية وبالتالي التحيز إلى ما هو فوق إنساني والنتيجة مصادرة الواقع لحساب المثال المنمذج ما وراء التاريخ والموجود فوق الإنسان والخارج على الواقع الموضوعي.
ومع إن العلاقة التي تجمع بين العقل الفلسفي والعقل السوسيولوجي علاقة وثيقة ومعقدة وإيجابية أحياناً، فللفلسفة أثرها العظيم والنهائي في بناء العقل السوسيولوجي وفي تحديد اتجاهاته المختلفة، إلا أن الاختلاف ينصب أساساً - فيما يرى نيقولا تماشيف - على مستويات التجريد والمعالجة المنهجية، فكلاهما يحاول وصف الواقع وتفسيره، وملاحظة الوقائع والتعميم المشتق من هذه الملاحظات.
إلا أن العقل الإنساني لا يقف عند إعادة تصوير الأحداث الفريدة غير المتكررة، وإنما يسعى إلى الكشف عن أنماط التكرار والتردد الكامنة خلف الإطار الفردي والتاريخي الزمكاني لهذه الأحداث. عند هذه النقطة بالتحديد تفترق الرؤية الفلسفية عن التحليل السوسيولوجي إلى أفق آخر من غير رجعة لقاء، فبينما يفسر عالم الاجتماع المجتمع في ضوء الوقائع الملاحظة من خلاله أو من خلال الميادين المتصلة ذات المعرفة الامبيريقية، يفسر الفيلسوف المجتمع في ضوء التفسيرات التي يعطيها للحقيقة المطلقة / الكلية، ولذلك فإنه يستطيع أن يتحدث عن العلل الأولى، والقيم النهائية والغايات القصوى (١)
وبينما يحاول العقل السوسيولوجي حسب رؤية أميل دوركهايم التعامل مع الوقائع الاجتماعية (كأشياء) وليس كنظم أفكار موضعة.. وهذا تحديداً ما ذهبنا إليه في المقال السابق حول (افول العقل الفلسفي) (٢): فإن الأزمة الحقيقية أو الإشكالية التي اطاحت بالعقل الفلسفي، ونالت منه فيما بعد القرن التاسع عشر كانت مشخصة كامنه في: حجم (القطيعة التي تمارسها الفلسفة مع الموضوع) (٣) كانت تعبيراً طبيعياً لمسيرة تطورية مارس التاريخ من خلالها مكره من جديد إضافة إلى أنه كان شكلاً لتوازن ذاتي لواقع مأزوم اجتماعياً، اقتصادياً وسياسياً تمثل بجملة من الأسباب كان أولها اشتعال الحرب (العالمية الأولى، والعالمية الثانية، والعالمية الثالثة - الباردة.. وما تمخض عن ذلك من مظاهر استعمار وظهور ما يسمى اليوم (العالم النامي / الثالث).. والأزمات الاقتصادية المتلاحقة، وانتشار المد الأحمر.. الخ.
واستناداً إلى الفرضية التي تدعم قاعدية البنى التحتية ودورها في بناء وتشكيل الأنماط المعرفية والنظم الثقافية العامة لشعب من الشعوب ومن ثم صياغة العقل الجمعي له، وبمعنى أدق تبعية العقل لتحولات الواقع.. إذ أن العقل (في هذه الفرضية الرصينة جداً..) مرتهن بالواقع ومتضمن فيه وليس العكس أبداً.. هذه الأزمة بكل أبعادها ومستوياتها كانت نتيجتها أن ينتهي القرن التاسع عشر - قرن التنظير الفلسفي متعدد المستويات ذي العقول الأسطورية بهذه الطريقة المريعة إلى: حرب، مجاعة وصراعات تقيل العقل فيه لصالح الجنون الذي أصاب القرن العشرين و.. صعوداً..؟؟
عند هذه النقطة تجاوز عقل التاسع عشر جوهره الأصيل ومقاصده الكبر وغاياته النبيلة ليصير إلى مجرد أداة تنتهي فضيلتها عند حدود المنفعية الذاتية أو تمجيد الدولة العظمى كمثل أعلى للحق الإلهي في فلسفة الحق عند فريدريك هيغل. كما تخلى العقل عن كليته وشموليته وتحول إلى مجرد قوالب صورية، شكلانية وتنصل فيها عن مسؤوليته في إقامة التوافق وتحقيق الانسجام بين مقاصد الإنسان ومسارات التاريخ الحقيقية إلى أمام.. فكان نسياً منسياً.. ما جعل القرن العشرين وما بعده - مادياً إذ لم يعد هنالك تنظير أو نظرية أو حتى حقيقة كلية بل ثمة بحث مضن - إنساني عن الحقيقة القياسية (الفرعية) المجزوءة من الحق الكلي والبحث المحصور والمحدد بين جدران المجتمع الإنساني الكبير فليس بعد اليوم ثمة حقيقة كلية أو شمولية في السماء أو بين النجوم أو حتى يمكن تتلبد في فضاء موحش؟؟ وهو تحديداً ما جعل منه قرناً للحرب، والخوف من المجهول والعنف والثورة والثورة المضادة والانقلابات السياسية والاجتماعية والعسكرية وبالتالي قرن اكتشاف الإنسان لنفسه أو إعادة اكتشافها من جديد...
وبالتالي فإن كل هذه المظاهر كانت تجلياً للعقل السائد في القرن الحادي والعشرين وما سبقه بقليل وهو على ما يبدو عقل الطبقة الوسطى - البرجوازية الصغيرة - الخارجة للتو من معركة منتصرة مع عالم الإقطاعية المترهل هذا العقل المختلف تماماً عن عقل الطبقة ذات الأصول الارستقراطية التي تميل إلى التأمل وهي في العموم فرضية جديرة بالبحث والاستقصاء بإرجاع القدرة التنظيرية لدى العقل الفلسفي التأملي كنتاج لصيق بواقع المجتمع الارستقراطي بينما تكون القدرة على العمل والممارسة والفعل تعبيراً لنموذج الإنسان المنتج في المجتمع البرجوازي الذي فاز بتحقيق نموذج الثورة الصناعية وحسنة القضاء على الإقطاعية عندما جسد فوزه هذا - طبقياً - بسيادة أو تعميم نموذجه العقلي وتعزيزه ثقافياً بنماذج معرفية - ابستمولوجية - معينة.
جسد النموذج الأول لانتصار الطبقة البرجوازية ذات القدرة الصناعية الإنتاجية ظهور أو اكتشاف الإنسان العادي لقدرته على قلب معادلة السلطة في المجتمع الإنساني بشكل عام وسيادة ثقافة التغيير وبالتالي الثورة..
بينما جسدت الثورة الصناعية - النموذج الثاني وانتشار العمل الصناعي وبالتالي ما هو مرتبط بها من مفاهيم الإنتاج وظهور المدن الصناعية الكبرى وبالتالي سيادة النزعة الرأسمالية المشجعة بالقبول الديني وفقاً لما يرى - ماكس فيبر - ثم فائض القيمة ثم الشركات عابرة القارات وقيم الروح الفردية انتهاءاً بظهور النقيض البروليتاري للمجتمع البرجوازي الذي لوح - كارل ماركس - باعتباره بديلاً جدياً لمجتمع القهر البرجوازي واعتبار الطبقة البروليتارية بديلاً شرعياً وتاريخياً للبرجوازية في النظم الرأسمالية ومن ثم تراجع القدرة على إنتاج فلسفات كبيرة أو قدرة على إنتاج رؤية متناسقة ومتناغمة بل استحالة تكوين آيديولوجيات كبيرة وعملاقة - كما حدث في السابق مع فلسفة هيغل وعمانويل كانت وفريدريك نيتشه، و.
هذا تحديداً كل ما يتعلق بحقيقة غياب العقل الفلسفي وأفوله إثر انقلاب الواقع الاجتماعي لأوروبا آنذاك وولادة نموذج العقل الممارس الذي يؤمن بالفعل كمعيار أساسي في البحث عن الحقيقة.. وبالتالي ظهور نماذج فلسفية تغييرية / حلقية بمعنى ذات تخصص في حقل معين من الحقول المعرفية وسيادة نموذج الروح التجريدية / الرقمية / العلمية... وتوفر القدرة على تجاوز المحن والأزمات الاقتصادية التي أطاحت بعرش العقل التنظيري واستبداله بإنتاج العقول الالكترونية واكتشاف جزيئة الجينيوم الوراثي (دي، أي، أن) أي الخارطية الوراثية لبناء الإنسان وبالتالي القدرة على استنساخه بعد النعجة (دولي) ثم تنامي القدرة على تحقيق نماذج متقدمة من المدنية والحضارة..
بعد القرن التاسع عشر تحول البحث عن الحقيقة الكلية إلى البحث عن الحقيقة المجردة والموضوعية في جسد النظام الاجتماعي الكلي وفي تفاصيل الإنسان وشرعية الدولة بديلاً ونهاية لرحلة العقل الفلسفي الذي استهلك قدرته بحثاً في عالم المجردات والأوهام الفوقي.

هوامش:
١. نيقولا تيماشيف - نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها - ت/ محمد عودة، ط / ٨، ١٩٨٣، مصر دار المعارف، ص٣٠
٢. ينظر للباحث:
مقال - أفول العقل الفلسفي / القسم الأول -، نشر في جريدة (المدى) العدد (١٠٨) في ٤ / ٢٠٠٤
ومقال - إشكالية العقل الآيديولوجي / القسم الثاني، نشر في (المدى).
٣. موريس ميرلوبونتي - تقريظ الفلسفة، ترجمة فزحيا خوري-، الطبعة الأولى، - ١٩٨٣ - بيروت - منشورات عويدات ص ١٠٥.

المجتمع التكنوقراطي واستلاب الذات الإنسانية

شاكر البيضاني

الاقتصاد كعلم هو صيغة لا ستراتيجية الانتاج او الاستهلاك المؤسس على الحساب الاقتصادي الرشيد واستغلال المنتجات الانسانية وهو ايضاً سلوك انساني يبحث عن الثروة من خلال الانتاج والمبادلة وفي هذا يحتاج الى الرشادة او العقلانية التي تعني التوفيق المستمر بين الحاجات والاهداف والوسائل.

ولكن القوانين الاقتصادية في نتاج الروابط الاقتصادية التي تستمد صفتها من حيث انها علاقات اجتماعية تنشأ بين أفراد المجتمع بمناسبة اشتراكهم في النشاط الانتاجي.. فما هو اقتصادي يتحدد اجتماعياً وليس لخاصية مجردة ترد الى الانسان بصفة عامة. حيث يدخل الافراد في علاقات الانتاج التي تتفق مع النمو الموازي لقواهم الانتاجية المادية. ومجموع الوقائع والاحداث والمراكز والنظم التي ترتبط بهذا الانتاج تكون ما يسمى بروابط الانتاج والتي تكون ككل البناء الاقتصادي -الاجتماعي. وهو البناء الذي يعد اساساً تنطلق منه كافة المظاهراجتماعية الاخرى المحيطة بالانتاج (قانونية، سياسية، خلقية...) والتي يمكن ان تتأثر او تؤثر فيه.

من هذه المقدمة البسيطة لعلاقات البناء الاقتصادي بالاجتماعي نريد ان ندخل الى صلب الموضوع وهو كيف اثرت التكنولوجيا بوصفها من افرازات النمو الاقتصادي على المجتمع وبالخصوص على المسألة التي سادت بين نقاد الحضارة الصناعية وهي استلاب الذات او الهوية الانسانية بحيث جعلت من الانسان شخصاً مربوطاً ومسلوباً في آن واحد وبصورة قد تكون لا واعية من قبل الفرد نفسه لهذا الاستلاب (العقلاني).
اما العمل الاساسي في التحولات الاجتماعية التي يشهدها العصر يتمثل في التقدم التكنولوجي المطرد بلا هوادة منذ فجر الثورة الصناعية. ومتطلبات التكنولوجيا كما يقول فروم فهي في الاساس مزدوجة وذلك بجعل كل شيء ممكن تقنياً متحققاً فعلياً بدون التفات للنتائج العلمية والوصول بالكفاءة والناتج الى الحد الاقصى على أسس التنظيم البيروقراطي والنمو الاقتصادي الى الكمية المرسومة. فمن الملاحظ ان المجتمع الصناعي يتجه صوب ميكنة (اتمتة) المجتمع لصالح رأس المال وعلى حساب العمل. وتفسير هذه الظاهرة لا يمكن ان يرد فقط على عوامل التقدم التقني. فالذي لا شك فيه ان العمل الانساني الذي خلق الابتكار والتجديد والذي جسد التقدم في الآلة هو بذاته الذي أدى الى توفير العمل. فالتقدم الفني يعد سبباً مباشراً في حين ان علاقات العمل هي المصدر الحقيقي لهذا التغير وهي التي تستفيد او تعاني من هذا التغير بحسب وضعها الاجتماعي في عملية الانتاج. لذا فالعمل اليدوي يعاني من هذا التقدم وتتمثل المعاناة سواء في البطالة او في التحويل الى فروع النشاط الانتاجي الاخرى، في حين ان العمل الفني والفكري هو الذي استفاد من هذا التقدم باقترابه من الادارة العليا للوحدات الاقتصادية. هذه الفائدة التي انقلبت الى الضد نتيجة ابتكاره لظاهرة الاتوماتيزم. ومن هذا الموقع استهدف بعض المنظرين محاولة مطابقة المنطق الداخلي للتكنولوجيا مع الاساس المنطقي المحضر للتطور الرأسمالي. فمبدأ الهيمنة متأصل في مدلول التكنولوجيا وليس في مجرد تطبيقها. ذلك ان مبادئ العلم الحديث بينت بحيث تغدو ادوات مفاهيمية لاجل عالم من السيطرة الانتاجية مدفوع ذاتياً يبرز من بعدها مجتمع بيروقراطي قائم على الاستهلاك التلاعبي. والتكنوقراطية ليست النمط الرأسمالي في الانتاج وحده بل هي في الواقع نتيجة التصنيع الناضج والمتسارع بصرف النظر عن الدور المعزو لحافز الانتاج. وقد تطورت التكنوقراطية في ظل نظام شبه تحكمي يتسم بالمناورة وقادر على تنظيم الحاجات والمدركات الحسية وقيم المجتمع وان مؤسساته المهنية والدولة والشراكة لم تحقق احتكار السلطان الاقتصادي فحسب بل وكذلك السطوة التنظيمية التي تنعكس في كل جانب من جوانب السلوك الاجتماعي.
ومهما يكن من امر فان مثل هذا التفوق المؤسساتي يبدو ذا صفات متناقضة ظاهرياً لانه يقوم على التحكم اكثر مما يقوم على المشاركة وعلى التنافس اكثر مما يقوم على التعاون وهو يدمر الصفة الترابطية للمجتمع واستقلالية الفرد الاخلاقية، فالوحدة العضوية تأخذ مكانها دولة غير وثيقة القرابة ومؤسساتها شديدة التركيب ومفرطة في لا شخصيتها وبيروقراطيتها بحيث لا يمكن ان تلبي الحاجات السيكولوجية للجماعة وليتنازل المستهلك عن سيادته لكي تبرز البنية التكنولوجية المندمجة التي يعتمد توسعها المستمر على التحكم في السوق ومن ثم في القدرة على تشكيل سلوك المستهلك ومواقفه الاجتماعية. وفي الحقيقة ان الرخاء الذي تنعم به الدول الصناعية يتم على حساب كلف اجتماعية باهظة يمكن ادراكها لدى معاينة ازدحام العيادات النفسية او مساءلة الفرد المعاني نفسه او من قراءة احصاءات الجرائم او زيادة المحاكم التي تغص بالمشاكل الاجتماعية او ارتياد بعض النوادي والمتنزهات لقراءة سطور الازمة الحضارية في عيون الناس. ومن هذه الكلف النفس اجتماعية التي تحملها الحضارة الصناعية هي استلاب الذات الانسانية كأحد المكونات الرئيسية للشخصية فالانسان يعاني من القوة الساحقة للمجتمع التكنولوجي بصورة اكثر اثارة وفورية في موقع العمل الذي قد يكون اقل إثارة للملل واقصر مدة مما كان عليه لاجيال عديدة خلت.. ومع ذلك فان الضريبة التي يتقاضاها من الشخصية الانسانية قد تكون اكبر من أي وقت مضى. فباسم الانتاجية والوفرة والانتفاع العقلاني من الماكنة نتج التقسيم المنظم للعمل ونظام التجميع الكفوء الذي تغدو اثاره الجانبية المحتمة مثيرة للسأم والتبلد الذهني والاكراه النفسي. وحسب تعبير هربرت ماركوز، ان التنظيم والتقسيم العمليين يزيدان زيادة كبيرة انتاجية المشروع الاقتصادي والسياسي والثقافي فتكون النتيجة ارتفاع مستوى الحياة. وفي الوقت نفسه وعلى اساس المبادئ نفسها انتج ذلك المشروع العقلاني حالة فكرية وشكلاً يفسران ويبرران مظاهر هذا المشروع الاضطهادية والتدميرية. لذا فان التبعية الشخصية (تبعية العبد للسيد والقن لصاحب القصر والوالي للملك...) يحل محلها شيئاً فشيئاً نوع آخر من التبعية: التبعية تخضع المرء الى (نظام أشياء موضوعي) كالقوانين الاقتصادية والسوق.. ولئن كان نظام الاشياء الموضوعي من صنع السيطرة ونتائجها هو الآخر، فان السيطرة تعتمد الآن على درجة اكبر من العقلانية، عقلانية مجتمع يدافع عن بنية الهرمية ويشتغل في الوقت نفسه وعلى نحو انجع باطراد الموارد الطبيعية والفكرية ويوزع على نطاق متعاظم باستمرار ارباح هذا الاستغلال.
هكذا يعمل المجتمع التكنوقراطي على تفتيت العناصر المكونة من البنى والموسسات كالاسرة والجماعة نزولاً الى الفرد بمظاهرة انحرافية عن الطبيعة البشرية كالاغتراب والجريمة والانسياب وراء الحركات الرافضة والناقدة للمجتمع الذي تحكمه الآلة الغبية بعيداً عن احلام الانسان في راحة النفس والضمير بتحقيق العدالة بين بني الانسان.
ان التمحيص المتاني للجهاز الصناعي البيروقراطي سرعان ما يكشف عن الصراع الذي لا يمكن ان يخضع للتوفيق بين الاستقلالية الانسانية والتطبيق التكنولوجي الذي يكون نتيجته المحضة طمس اي أثر للقرار الشخصي في مخطط المنظمة البالغ حد الكمال. هذا الطمس الشخصي يتمظهر بحالات من اختلال التوازن النفس- اجتماعي بسبب الهيمنة التي تكاد تكون كاملة لحكم التكنولوجيا على الفرد. ومثل هذه الهيمنة تتضمن اكثر بكثير من مجرد الخضوع للسلطة الخارجية بل وحتى للسلطة المنبثقة من داخل النفس البشرية ومن القواعد والتنظيمات. انها تستتبع عملية بعيدة المرام من الاغتراب النفسي الذي اكد عليه ماركس ومن بعده اريك فروم وعدد من علماء الاجتماع. والاغتراب عند ماركس شكل من اشكال ابعاد الذات، أي الحالة التي يكون فيها الفرد مغترباً عن الطبيعة وعن نفسه (عن نشاطه الذاتي) وعن نوعه البشري وعن الناس الآخرين. وقارن فروم بين اغتراب العامل الذي يعانيه نتيجة الاحباط الابداعي الروحي وتطلع استقلالية الفكر اللذين يقودانه الى الهروب من الوجود واللامبالاة والهدم والنكوص السيكولوجي، وبين اغتراب مدير الشركة الذي يعانيه نتيجة التعامل اللامشخص والقائم على القمع مع الجماعات المتنافسة ذات المصالح التي تسيطر على الاقتصاد المنظم وكذلك مع المستهلك المجهول الاسم الذي يتوجب ان يعرض للتلاعب من اجل ان يختار ما انتج اليوم وان يرفض ما انتج بالامس. وفي مجتمع معقد تحكمه قوى السوق تكون شخصية الفرد مغمورة بقيمته بالتبادل وكأنه ليس سوى سلعة بل وكأنه لا يمتلك احساساً بالذات ولا هوية ولا كرامة شخصية. وعلى نفس الغرار فان الفرد في الاقتصاد الجماعي المفروض بالقوة ليست له قيمة بقدر ما يسهم به مادياً من اجل تحقيق الخطط الاقتصادية والاهداف الصناعية غير الواضحة.
وفي كلتا الحالتين فان عمل الفرد أي الطاقة البدنية والعقلية واللتين يصرفهما يقررها جهاز ليس له عليه أي سلطان. ومثل هذا العمل قد يؤدي الى مقاييس اعلى للاستهلاك المادي غير ان النتيجة المحضة انما هي استهلاك الذات وحالة اشباع زائف لان السلع التي تستهلك توافق تلقينات التقنية الاعلامية او الدعاية الايدلوجية التي تتخصص في التجربة المزيفة وصنع الصور الخيالية.
وحالة الاغتراب السيكولوجي هذه تؤدي حتماً الى تجريد الفرد الذي يتحول الى رقم فحسب في حسابات الكومبيوتر وفي تنبؤات وقرارات المستثمر والاستراتيجي ورجل الادارة والسياسي. ويحول الفرد الى شيء ضمن عملية مجردة هائلة التلاعب. والاحداث التي تخص الاعداد الكبيرة من الكائنات البشرية سواء حين تضطلع احدى الشركات بالمسؤولية ام حين تبدأ صناعة جديدة او عند وقوع كارثة طبيعية فان كل ذلك يقدر بصورة غير متغيرة بمصطلحات عنصر ما كمي تجريدي ضخم اكثر مما يكون بمصطلحات الجوانب الملموسة من التجربة البشرية والمعاناة الانسانية. ومن ثم فان النقاش السياسي وصنع القرار الاقتصادي يصبحان قائمين على عقلانية رياضية اكثر مما يقومان على إدراك المشكلات الاساسية للوجود الانساني.